

التحديات أمام علم الاجتماع في عالم غير متكافئ

ها إنني أعود من مؤتمر «علم الاجتماع في عالم غير متكافئ» الذي انعقد في تايبيه - تايوان (٢٣ - ٢٥ آذار/مارس ٢٠٠٩)، والذي اعتبره من أهم المؤتمرات التي حضرتها خلال الأعوام العشرين الماضية. وقد انطلق المؤتمر من طرح عدة تساؤلات، هي: هل استطاعت السوسيولوجيات الوطنية أن تتطور مستقلة عن المركز الشمالي الذي كان يوماً من الأيام مستعمرًا؟ وما هي سمات هذه السوسيولوجيات الجديدة؟ وما هي التحديات الجديدة التي تواجهها: هيمنة الدولة، أم المانحون، أم التبعية للمركز، أو عدم استقلالية علم الاجتماع مقارنة بفروع أخرى للمعرفة؟

لعله من الصعب تناول جوهر النقاشات الغنية التي جرت خلال الأيام الثلاثة للمؤتمر، والتي ساهم فيها أكثر من ٧٠ مشاركاً (٦٢ منهم من خارج تايوان)، ولكن سأكتفي هنا بتناول ثلاث قضايا:

تتمثل القضية الأولى في تشكّل شبه إجماع على وجود نوع من سيطرة (Domination) لسوسيولوجيا غربية على كثير من السوسيولوجيات الوطنية، ولو أن هذه السيطرة لا تبلغ درجة الهيمنة (Hegemony) بالمعنى الذي يعطيه أنطوني غرامشي. كما رُسمت صورة أعقد من مجرد وجود مركز وأطراف، إذ اعتبر أن هناك أطرافاً في المركز، ومراكز في الطرف، فقد عُدتّ استراليا مثلاً طرفاً.

وتتمثل القضية الثانية في تأكيد أهمية تطوير السوسيولوجيا الوطنية إلى شكل يأخذ ألوان الواقع المعاش والتطور التاريخي في كل سياق، ولو أن ذلك لا يمنع من التعاون بين الشمال والجنوب للبحث عن نظريات جديدة لعلم الاجتماع. واعتبرت موجة الشرذمة الفكرية التي أنتجتها مدارس ما بعد الحداثة وما بعد البنية أنها في طريقها إلى الأفول، وستكون هناك عودة إلى دور أكثر مركزية للنظرية الاجتماعية التي تتحلّى بالمرونة لاستيعاب التعددية. ومن هنا أطلق بعض المشاركين شعار توطين (Indigenization) النظرية الاجتماعية.

وقد اقترح السوسيولوجي السنغافوري سيد فريد العطاس العمل على الاستفادة النظرية من ابن خلدون في فكره حول العمران والعصبية، وعدم الاكتفاء فقط بانتقاء ومضات فكرية منه. وقد نبه إلى أن هذا التوطين هو جزء من عملية تكريس الشمولية (Universality)، فهو ليس باسم الخصوصية. وبالتالي فهو يختلف كثيراً عن دعوات أسلمة أو تهويد المعرفة، والتي نادى بها بعض علماء الاجتماع في العالم

الإسلامي وفي إسرائيل، ولم تؤد إلا إلى أدلجة تلفيقية للبحث الاجتماعي تكاد تكون عقيمة في قدرتها على قراءة حتى الواقع العربي - الإسلامي.

أما القضية الثالثة فهي التي تتحدث عن أشكال مختلفة من السوسيولوجيا، ولكن ليس بحسب موقعها الجغرافي أو الثقافي، بل بحسب علاقتها بالمجتمع والدولة. وقد اعتبرت مقالة مايكل بوراوي (Burawoy, 2004) نقطة انطلاق أساسية. لقد ميّز بوراوي بين أربعة أنواع من السوسيولوجيا: النوع الأول هو السوسيولوجيا المهنية (Professional Sociology)، وهي السوسيولوجيا التي تهتم بموضوعة هذا العلم وتنفيذ دراسات عميقة إمبريقية ونظرية عن المجتمع. والنوع الثاني هو السوسيولوجيا النقدية، وهي السوسيولوجيا التي تهتم بالنظر إلى إنتاج السوسيولوجيا المهنية وتوصيف وتحليل اتجاهاتها. لكن هذين النوعين يشكلان خطاباً تتداوله النخبة الأكاديمية في الجامعات، فكان لا بد من أن يساهم نوع آخر في الحوارات والنقاشات في المجال العام والمساهمة في تشكيل الرأي العام. ولذا يأتي النوع الثالث، وهو سوسيولوجيا المشاركة العامة (Public Sociology)، ليلعب هذا الدور. وتحتاج الدولة - القومية والمنظمات الدولية والأهلية إلى دراسات موجهة لموضوعات ومشاكل معينة ترتبط باحتياجات المجتمع الآنية ولإنتاج توصيات، ويسمى هذا النوع الرابع والأخير بـ «سوسيولوجيا السياسات» (Policy Sociology).

لقد ناقش المشاركون هذه السوسيولوجيات الأربع، واشتكى البعض من عدم توازنهم في بعض المجتمعات. وما يمكن أن أقوله هنا هو أن الدول القومية في بعض المجتمعات العربية قد اتسمت بقمع السوسيولوجيا النقدية ومنع اتصال الأكاديميا مع الجمهور. ولكن هناك اشكاليات تتجاوز ضغط الدولة، فمن جهة ينعزل بعض السوسيولوجيين عن المجال العام، حيث يدفع البعض إلى اتباع طريق مهني ذات برج عاجي مرتبط بالعالمي والكتابة فقط باللغة الأجنبية وعدم الاهتمام بوسائط الإعلام المحلية والحوار مع الجمهور؛ ومن جهة أخرى يغرق البعض الآخر في سوسيولوجيا المشاركة العامة دون تغذيتها من نتاج جدّي في السوسيولوجيا المهنية، مشكلاً بذلك ظاهرة السوسيولوجي المثقف الذي يمكن أن يتحدث عن أي شيء يطلب منه.

هذا وقد دفع تخلي الدولة عن تمويل الجامعات ومراكز الأبحاث الوطنية إلى ارتهان البحث السوسيولوجي للمانحين من المنظمات الدولية والحكومات الغربية. لقد أدى ذلك إلى تطور البحث الاجتماعي إلى الأمام في كثير من الأحيان، وربط الباحث بشبكات بحثية متميزة في الشمال. ولكن لقد اتسم هذا البحث في بعض الأحيان بسرعة إنجازة، بحيث لا يعود بحثاً ذا طبيعة سوسيولوجية مهنية مرتبطاً ببرنامج بحث طويل الأمد، بل يكون مرتبطاً بمشروع بحثي لا تتجاوز فترة إنجازة السنة والنصف، وفي أحسن الحالات سنتين.

لقد انتقل مركز الانتاج السوسيولوجي من الجامعات إلى مراكز بحثية على

شاكلة الجمعيات الأهلية، وظهر نوع جديد من الباحث السوسيولوجي: الخبير. وكما بيّن السوسيولوجيان اللبنانيان أحمد بعلبكي وجاك كابنجي في دراستهما، فلقد لعب الخبير دوراً رائداً في تطوير سوسيولوجيا السياسات وربطها بصانع القرار الوطني والعالمي. ولكن، بشكل عام، يمكن القول إنه غلب على الخبير إهمال للسوسيولوجيا المهنية. وكما بيّنت السوسيولوجية المصرية منى أباطلة في ورقتها التي قدمتها إلى المؤتمر، فنحن الآن أمام ظاهرتين رئيسيتين: إما تحويل البحث السوسيولوجي إلى سلعة كأى سلعة تخضع للعرض والطلب (ولكن هذه المرة ليس من الجمهور، ولكن من المانح أو متخذ القرار) أو تجريم الباحث، كما هو الحال في الحكم بالسجن ثلاث مرات على عالم الاجتماع المصري سعد الدين إبراهيم، الذي انتهى به الحال إلى العيش كلاجئ سياسي بعيداً عن وطنه. ويمكن تعميم ذلك إلى حدّ ما، وبدرجات متفاوتة، على الوطن العربي.

انتهى المؤتمر إلى اجتماع عمل للجمعيات الوطنية لعلم الاجتماع، حيث كان هناك خمس وأربعون جمعية لم يكن للعرب حصة منها إلا واحدة، هي الجمعية الكويتية لعلم الاجتماع التي مثلها فهد الناصر (والذي قدم دراسة مهمة عن تطور السوسيولوجيا في الخليج). وحتى إن الجمعية العربية لعلم الاجتماع لم تمثل في هذا المؤتمر.



يحتوي هذا العدد من إضافات على ملف «ساخن»، ألا وهو «الجنس والمجتمع العربي»، كما يضمّ دراسات أيضاً عن بعض المجتمعات العربية. ويمكن ملاحظة مدى السخونة التي تسم هذا الملف من قلة دراساته، وخاصة باللغة العربية. وإنني أمل أن يدفع هذا العدد بعض الباحثين إلى دراسة بعض القضايا المتعلقة بالجنس في مجتمعاتهم. وقد تضمّن هذا العدد موضوعات سوسيولوجية أخرى.

أخيراً لا يسعني إلا أن أعبر عن وافر امتناني لكل من مؤسسة هنريش بول الألمانية ومركز دراسات الوحدة العربية على الدعم الذي قدماه لإصدار هذا العدد وترجمة بعض المقالات □

المراجع

Burawoy, Michael (2004). «Public Sociologies: Contradictions, Dilemmas, and Possibilities.» *Social Forces* (University of North Carolina Press): vol. 82, no. 4, June 2004, pp. 1603-1618.

ساري حنفي

أستاذ مشارك في علم الاجتماع، الجامعة الأميركية في بيروت.

sh41@aub.edu.lb

الجنس والمجتمع العربي

